

المحاضرة الرابعة

مذهب الجشطات

الجشطاتية أو نظرية الشكل، التي غالبًا ما يشار إليها في الدوائر المتخصصة بالمصطلح الألماني نظرية جشطات، هي أحد الأنساق السيكولوجية التي عرفت أكبر شعبية منذ نشأة علم النفس. كما هو الحال مع التحليل النفسي ونظرية الاشتراط، يبدو أن ثروة هذه المدرسة ترجع أساسًا إلى حقيقة أنها ذكرت ونشرت مفاهيم واضحة تمامًا للوهلة الأولى، والتي يمكن أن يفهمها الإنسان متوسط الثقافة ظاهريًا. وتتطلب، من حيث المنطق، الحد الأدنى فقط من المعلومات التقنية. ومع ذلك، فإن التعمق الجاد لهذا الاتجاه يتطلب معرفة نظرية وتجريبية وتاريخية تتجاوز بكثير مستوى المعلومات المتداولة. لقد استخدم منظرو الجشطاتية في أدلتهم الأمثلة العديدة والمتكررة، والمستمدة أساسًا من مجال الإدراك البصري.

السياق التاريخي لنظرية الجشطات

في عام 1830، صنع الفيزيائي البلجيكي جوزيف بلاتو (Plateau) (جهازًا كان ينوي دراسة قوانين الرؤية. يتكون هذا الجهاز، المسمى "فييناكيسكوب"، من قرصين متوازيين. الأول، مقسم إلى قطاعات، يحمل الصور المتتالية لشخصية في الحركة؛ والثاني، مثقوب بشقوق شعاعية، وهذا يجعل من الممكن رؤية هذه الشخصية تؤدي الحركات باستمرار، إذا تم تدوير الجهاز. في نفس الفترة تقريبًا، تخيل ستامفر (Stampfer) جهازًا مشابهًا أطلق عليه "ستروبوسكوب". اكتشف هذان العالمان إمكانية إنتاج حركة متتالية واضحة، أي أن هذه العملية سمحت بترك انطباع عن وجود حركة مستمرة عن طريق مزج في مدة زمنية مجموعة من الصور الثابتة. لم يكن هذا الاكتشاف في الأصل مصدر الاختراع العجيب للسينما من قبل الأخوين لوميير (Lumière) فقط وكذا العديد من الأعمال المتعلقة بتحليل الحركات التي تلت ذلك، ولكن كان أحد أهم منطلقات سيكولوجية الإدراك. نشر ماكس فيرتهايمر في عام 1912، كتابه (دراسات تجريبية حول إدراك الحركة)، والذي قدم فيه نتائج بحث دقيق حول تأثير الستروبوسكوبيك (stroboscopique). وقد شكلت أبحاثه نقطة بداية تجريبية حاسمة لنظرية الجشطات.

بدأ علم نفس الشكل أو الجشطات في ألمانيا حوالي عام 1910، وذلك كرد فعل على النظرية السلوكية على وجه الخصوص، وقد أسس

ثلاثة علماء هذا التيار السيكولوجي هم: فيرتهامر (Wertheimer) وكوفكا (Koffka) وكولر (Köhler). وركزت هذه النظرية النفسية بشكل خاص على جوانب تكوين الصورة وشمولية الحياة الذهنية.

خلال الفترة الممتدة بين 1930 و1960، عارض منظرو علم النفس الجشطاطيون علماء السلوك بشكل جذري، حيث كانت التجارب التي أجريت على القروود تسلط الضوء على حل المشكلات الذي لم يعد نتيجة الاشتراط البسيط، كما تتطلب هذه التجارب أيضاً فهماً لأنماط الفعل المعقدة المترابطة بينها. على سبيل المثال، لاحظ ولفانغ كوهلر كيف تعلمت الشمبانزي إمساك بالموز خارج أفاقها بعضاً. لقد كانت نتيجة فترة من التجربة والخطأ، ومرحلة قصيرة جداً من التفكير، ثم فهم مفاجئ للحل (البصيرة) بالانجليزية (insight). أما من جهة أخرى، أكد ماكس فيرتهامر بأن التعلم المقدم للتلاميذ في المدارس ممل ولا يستجيب بدرجة كافية للفهم والاستبصار وبالتالي التفكير الإبداعي. وفقاً لعلماء الجشطاطيين، لا يمكن تقسيم الظواهر النفسية وكذلك السلوك البشري إلى سلسلة ترابطية بسيطة مثل: المثير --- الاستجابة.

المبدأ العام لنظرية الجشطاطات هو أن "الكل أكثر من مجرد مجموع أجزائه". وهكذا، يدرس الجشطاطيون الظواهر النفسية ككل، أي أنهم يدرسون كيف نميل إلى تجميع العناصر التي ندركها في وحدات ذات معنى. من خلال هذا البحث، صاغ علماء الجشطاطات عدداً من المبادئ (تسمى أيضاً قوانين الجشطاطات).

قوانين نظرية الجشطاطات

القوانين الأربعة الرئيسية التي تنبثق من الجشطاطات هي:

قانون القرب: تميل العناصر الأقرب إلى أن يُنظر إليها على أنها تشكل الكل.

قانون الإغلاق: عندما تكون الصور غير كاملة أو تكون سلسلة الأحداث غير مكتملة، تميل أدمغتنا إلى ملء الفجوات من أجل إدراك هذه المعلومات بالكامل. يتبع التعلم مبدأ الإغلاق، والذي يتضمن تكوين آثار في الذاكرة تصبح أكثر دقة ولكنها أبسط وأوجز وأكمل مع تراكم الخبرات التي يعيشها الفرد. هذا المبدأ نفسه يفسر أيضاً التشوهات والاختلافات في الإدراك بين العديد من الأفراد.

قانون التشابه: تميل العناصر المتشابهة إلى أن يُنظر إليها على أنها تنتمي إلى نفس الشكل.

قانون التناظر: عندما يكون للعناصر التي ننظر إليها محاور تناظر، يسهل فهمها على أنها شكل عام.

تصميم التعلم على أساس إعادة صياغة البنية

من خلال التأكيد على الإدراك العام للمثيرات، يتحدى الجشطالتيون فكرة أن التعلم يعتمد على ارتباطات بسيطة. بالنسبة لهم، التعلم يعني تنظيم أو إعادة تنظيم عناصر معينة بشكل مختلف؛ هو اكتشاف وإقامة علاقات جديدة بين العناصر التي كانت تعتبر حتى ذلك الحين معزولة. يؤكد الجشطالتيون أيضاً على الدور النشط للفرد في التعلم. بالنسبة للجشطالت، فإن التعلم يتعلق قبل كل شيء بحل المشكلات، فهو يتعلق باكتشاف حل مناسب من خلال إعادة صياغة بنية عناصر الوضعية. لشرح كيفية حدوث التعلم، يستخدم الجشطالتيون مفهوم البصيرة. ومن هنا يعارض التعلم القائم على البصيرة التعلم الجماعي السلوكي من حيث أنه لا يعتمد على عملية التحسين المستمر للسلوك، ولكنه يعكس الانتقال المفاجئ في كثير من الأحيان من حالة إلى أخرى مما يؤدي إلى إعادة بناء تصور الوضع. في هذا الصدد، يميز الجشطالتيون بين شكلين من أشكال التعلم التي يشيرون إليها على التوالي بالتعلم الذي يعيد إنتاج المعرفة (بدون تدخل البصيرة) والتعلم المنتج (مع تدخل البصيرة). فالاكتشاف المفاجئ للحل يسمى البصيرة.

يوضح كاتونا (Katona) هذا التمايز من خلال تسليط الضوء على أن التعلم الذي يعيد إنتاج المعرفة يمكن أن يتطور باستمرار تحت تأثير التكرار، بينما يتطلب التعلم الإنتاجي عملية إعادة بناء ذات طبيعة غير مستمرة. كان علماء السلوك مهتمين بشكل أساسي بالشكل الأول من التعلم، فاختر الجشطالتيون التركيز بشكل أساسي على الشكل الثاني من التعلم.

في النهاية، نستطيع القول أن كل هذه المبادئ، التي تعرفها نظرية الجشطالت على أنها قوانين، تعمل في نفس الوقت وتشرح شعار هذه المدرسة في علم النفس: "الكل أكثر من مجموع أجزائه". إذا فهمت العناصر بشكل فردي، فإنها تصبح بلا معنى، فقط عندما تتفاعل تكتسب المعنى. علاوة على ذلك، هذه هي الطريقة الطبيعية والغريزية التي يعمل

بها دماغنا: أولاً نرى الكل أو الوضع العام، ثم التفاصيل والأجزاء التي ترتبط تلقائياً وتتصل وتتجمع.

من خلال معارضة بعض المبادئ الأساسية للسلوكية، ستضع الجشطالتية أيضاً الأساس للنموذج البنائي (constructiviste) والنموذج المعرفي (cognitiviste) الذي سيتطور من نهاية الستينيات.